قضيَّة الطّبع والتكلّف في التراث النقدي

د. إسماعيل حسين فتاتيت
كلية التربية – جامعة مصراتة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد

فتعدُّ قضية الطبع والتكلف من القضايا التي شغلت بال النقاد القدامى كثيرا، حتى إننا نكاد نجزم أنَّه لا يكاد يخلو كتاب في النقد الأدبي منها، ولا ناقد إلا وأدلى بدلوه فيها. فقد حاول هؤلاء النقاد إيجاد مقياس لنقد الشعر فأطلقوا صفة المطبوع على من جاء بشعر سهل خال من التثقيف والصنعة، وصفة المتكلف على من كان شعره غير ذلك. وما كان اهتمام النقاد بهذا المقياس إلاَّ من أجل استخدامه كوسيلة من وسائل المفاضلة بين الشعراء.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي أشارت إلى هذه القضية؛ فإنَّ هذه الإشارات ظلّت متناثرة موجزة لم تُعط حقها من العناية والتمحيص، إذ لا توجد دراسة جادة مستقلة متكاملة –فيما أعلم– تناولت هذا الموضوع بشيء من الشمولية والاستقلالية بحيث يتبين من خلالها مدلول هذين المصطلحين دلالة واضحة وقاطعة يمكن الاطمئنان إليها. وإنما تم تناول هذه القضية في ثنايا مؤلفاتهم، فكان تعرضهم لها من خلال حكمهم على الشاعر وتقييمهم لشعره. وعبر هذا التقييم حاولوا تصنيف الشعراء إلى مطبوعين ومتكلفين، أو شاعر مطبوع وآخر متكلف.

وعبر هذه الدراسة، يحاول الباحث الإجابة على العديد من الأسئلة التي يمكن أن تُطرح حول هذه القضية، من مثل: ما الفرق بين الشعر المطبوع والشعر المتكلف؟ وما الخيط الذي يفصل الطبع عن التكلف؟ ومتى يتحول الطبع إلى صنعة؟ وتتحول الصنعة إلى تصنُّع أوتكلف؟

وعليه فإنَّ الأمر يتطلَّب أنْ يقوم الباحث بدراسة استقرائية للعديد من آراء قدامى النقاد، يسعى من خلالها إلى الإحاطة ـ قدر المستطاع ـ بنشاطهم النقدي المتضمن لهذه القضية. وعلى ضوء هذه الدراسة يتمَّ تقسيم البحث إلى ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: مفهوم (الطبع) في التراث النقدي

الطبع في معناه المعجمي: السجية التي خلق عليها الإنسان، فهو بعكس التطبُّع الذي يكتسبه اكتسابا، جاء في لسان العرب ((الطبع والطبيعة: الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان))[1]. وجاء في الصحاح: ((الطبع: السجية التي جبل عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدر، والطبيعة مثله، وكذلك الطباع))[2].

وقد استعمل العرب هذا المصطلح مجازا فقالوا: هو مطبوع على الكرم، وأيضا قالوا: هذا كلام عليه طبائع الفصاحة[3].

أمَّا ما يخص نظرة النقاد القدامى إلى مصطلح (الطبع)، فهم يجمعون بداية على أنَّ الشاعر المطبوع هو الذي يستطيع قول الشعر على السجية دون إعمال الفكر أو تكدير الفؤاد. وهو ما يؤيده قول الحجاج بن يوسف عندما سأل أحد الرجال البلغاء عن ولد المهلب، فقال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها، فقال له الحجاج: أقسمت عليك هل روَّأت في هذا الكلام، فنفى الرجل ذلك، فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع[4].

1- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط4، 2005م، مادة: "ط، ب، ع".

2- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط4، 1987م، مادة: "ط، ب، ع".

3- الزمخشري، جار الله محمود، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، ط1. مادة: "ط، ب، ع".

4- ينظر: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط3، 1987م، 330/1.

ثم إنَّ هؤلاء النقاد يتفاوتون في النظر إلى هذا الشعر المطبوع، فبعضهم يراه كيفما جاء واتفق، فيكون منه الغث والسمين والرديء والجيد، وهو رأي الأصمعي (217 هـ)، فقد كان ((يعيب الحطيئة ويتعقبه، فقيل له في ذلك فقال: وجدت شعره كله جيدا فدلَّني على أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع؛ إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه: جيده على رديئه))[1]. فالشاعر المطبوع عند الأصمعي؛ هو الذي يقول الشعر عفو الخاطر دون أيِّ مراجعة أوتنقيح أوتثقيف. ومقياس الطبع عنده عدم التساوي في الجودة، فالشاعر المطبوع هو الذي يكون في شعره الرديء والجيد. فهذا التفاوت في الشعر هو علامة الطبع المائزة عند الأصمعي، ومن ثمَّ، وصف الحطيئة بأنه عبد لشعره لا لشيء إلا لكونه وجد شعره متخيرا منتخبا.

وقريبا من هذا المفهوم؛ جاء مفهوم الطبع عند الجاحظ (255هـ)، وهو ما نستشفه من حديثه عن عبيد الشعر الذين يصفهم بأنهم يغتصبون الألفاظ ويلتمسون قهر الكلام. وهم في رأيه أصحاب صنعة وتكلف، وليسوا كالشعراء المطبوعين الذين تتدفق عليهم الألفاظ والمعاني بيسر وسهولة فيقولون الشعر ارتجالا دونما إجهاد فكر، يقول: ((لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ؛ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا))[2].

فالشاعر المطبوع . عند الجاحظ . هو الذي يملك أن يقول الشعر متى تهيَّأت نفسه لذلك، دون قهر للألفاظ أو إجهاد للفكر.

وحدا حدو الأصمعي والجاحظ؛ أبو هلال العسكري (395 هـ)، فالطبع عنده قول الشعر على السجية دون إجهاد للفكر أو إتعاب للنفس، وكيفما اتفق، يقول: ((وأما قرب

1- ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى بيروت، ط2، ج3 ص282.

2- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط2، 13/2.

المأخذ، فهو أن تأخذ عفو الخاطر، وتتناول صفو الهاجس، ولا تكد فكرك، ولا تتعب نفسك، وهذه صفة المطبوع))[1].

ويقول ضاربا أمثلة على الشعر المطبوع، ((ومن السهل المختار الجيد المطبوع، قول الآخر:

صرفتَ القلبَ فانصرفَا ∴ ولم تــرعَ الــذي سلفَا

وبِنْتَ فلـم أذُبْ كــمدا ∴ عليـــك ولم أمت أسفا

كـــلانا واجـدٌ في النَّا ∴ س ممَّنْ ملَّهُ خَلَفـــا))[2].

فالشاعر المطبوع عند هؤلاء هو الذي لا يجد كبير عناء في قرضه للشعر. والشعر المطبوع عندهم هو الذي يقال لأول وهلة دون معاودة أو تروّ كيفما جاء.

ومن النقاد القدامى من اشترط في الشعر المطبوع الذي يأتي عفو الخاطر؛ أنْ يكون متمتعا بشيء من الحسن وبنفحة من الجودة، بأن يبتعد به صاحبه عن حوشي الكلام وتعقيد المعاني وقلق القوافي. ويأتي على رأس هؤلاء ابن قتيبة (276هـ)، فهو يصف الشاعر المطبوع بأنَّه ((من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته، وتبيّنت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر))[3]. فالطبع عند ابن قتيبة يعني الموهبة والغريزة، والقدرة على قول الشعر، والاقتدار على القوافي. إلاَّ أننا نستشف من كلامه أيضا أن من كان على هذه الشاكلة؛ لابد أن يتصف شعره بالجودة والإحسان.

ويرى ابن قتيبة أيضا أن هذا الطبع يختلف من شاعر لآخر، فبعضهم لديه طبع وسهولة في غرض المديح، والآخر في الهجاء، وآخر يسهل عليه غرض الرثاء ويصعب عليه غرض الغزل،

1- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1984م، ص61.

2- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، ص78.

3- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف مصر، 1966م، ص90.

فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيها، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وكان الفرزدق زير نساء، ومع ذلك لا يجيد التشبيب[1].

فشعر الشاعر المطبوع عند ابن قتيبة متفاوت، فيحسن إذا وافق رغبة الشاعر وإجادته، ويقبح ويعتريه التكلف؛ إذا جاء فيما لا يجيده الشاعر ويرغب فيه، أو أن تجبره الظروف على قول شعر يفتقد إلى العاطفة الصادقة، كمصانعة ممدوح، أو مداراة سفيه. ومن ثم، فقد يكون للمتلقي جانب مهم في إبراز روعة الشعر المطبوع من عدمها، فهو الذي يقطع بجمال هذا النوع من الشعر أو قبحه، فقد تمكنه ثقافته بالشعر ودرايته به؛ من أن يستملح ما قاله هذا الشاعر في الغزل ويستقبح ما قاله في المديح.

والذي أورده ابن قتيبة حول طبيعة الشعر المطبوع؛ زاد عليه الآمدي (370هـ) صفة أخرى، وهي الابتعاد عن وحشي الكلام ومعقّد المعاني، حين وصف البحتري بأنه من شعراء الطبع، فقال في معرض حديثه عن أبي تمام والبحتري، وأيهما أشعر: ((وإن كثيرا من الناس قد جعلهما طبقة وذهب إلى المساواة بينهما، وإنهما لمختلفان؛ لأن البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف ...، فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور النمري وأبي يعقوب المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أولى. ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل))[2]. فالبحتري عند الآمدي شاعر مطبوع لأنَّه لم يلجأ إلى وحشي الكلام، ولم يعقد معانيه كما كان يفعل أبو تمام الذي أدخل على شعره الصنعة بسبب مزجه العقل بالشعور، والفكر بالعاطفة[3].

ومما سبق يمكن حصر آراء النقاد المتناولين لقضية الطبع في أمرين:

1- ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص93، 94.

2- الآمدي، الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1961 م، ص6.

3- خليف، يوسف، في الشعر العباسي، نحو منهج جديد، دار غريب القاهرة، ص96.

الأول: أنَّ مصطلح (الطبع) عند كل من الأصمعي والجاحظ والعسكري يقصد به قول الشعر على السجية كيفما كان دون مراجعة أوتنقيح، ولا يُشترط في الشعر المطبوع أن يكون جيدا في جميع إنتاج الشاعر، بل هو متفاوت حسب حالاته.

الثاني: أنَّ مصطلح (الطبع) عند كل من ابن قتيبة والآمدي، يدل على الموهبة، والملكة، والسهولة في قول الشعر، والاقتدار عليه، والابتعاد عن وحشي الكلام، وتعقيد المعاني. فمن سمات الشعر المطبوع عندهما اتصافه بالجودة والجمال.

والملاحظ مما تقدم أن أيًّا من النقاد الذين ورد ذكرهم آنفا لم يأت بتعريف محدد يوضح المقصود من الطبع سوى ابن قتيبة الذي حاول أن يجعل حدا يمتاز به الشاعر المطبوع. إلاَّ أنَّه من خلال آرائهم جميعا يمكن أن نخلص إلى أن الشاعر المطبوع هو الذي ((لا يكدّ ذهنه في نظم القصيدة ولا يتكلف، وإنما تنساب القصيدة انسيابا من طبعه الحسن وذوقه الرقيق))[1]. وهو الذي يقول الشعر ابتداءً بفطرته وعلى سجيته، دون إجهاد فكر أو إتعاب نفس أو تنقيح أو معاودة. تتدفق منه الألفاظ والمعاني من دون قصد أو تعمد، ويتصف بالوضوح والعفوية.

وفي ختام هذه الجزئيّة؛ لابد من الإشارة إلى أنَّ الشعر المطبوع لا يتأتّى دائما لصاحبه، فطبع الشاعر ((يثور ويهدأ، كالنَّار تشتعل وتخمد، وإنَّما يبعثها ويثيرها مثيرات تتعدد، ومواقف تتباين حسب نوع الطبع وجبلَّته، واستجابته للأشياء والأحداث ....، وترى الشعراء يتفاوتون في مواقف الإثارة، ويتفاوتون في التجاوب مع ما تبعثه من أحاسيس نفسية مختلفة، كأحاسيس الغضب، والحزن، والفرح والبهجة، والرغبة، والكراهية، وقديما عبَّروا عنها بأحكام موجزة على الشعراء فقالوا: زهير أشعر الناس إذا رغب، وامرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب))[2].

1- مطلوب، أحمد، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989م، 352/1.

2- زغلول سلام، محمد، تاريخ النقد الأدبي والبلاغي حتى آخر القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، ط3، ص57.

فما أبدعه الشاعر من جمال؛ لا شك في أنَّه كان نتيجة لفطرة سليمة قادرة على مثل هذا الإبداع. وهذا النتاج التلقائي هو ما يسميه النقاد بالشعر المطبوع، ((وأهله هم المطبوعون، فهو يباكرهم من نفسه فلا يطاردونه ولا يطاردهم، وهو بعد ذلك قائم بذات الشعر فكلاهما بضعة من صاحبه))[1].

المطلب الثاني: مفهوم (التكلّف) في التراث النقدي

جاء في لسان العرب: ((والمتكلِّف: العرِّيض لما لا يعنيه ...، وكلَّفه تكليفا: أي أمره بما يشق عليه. وتكلفت للشيء: تجشمته على مشقة وعلى خلاف عادتك))[2]. ومن ثم، قيل للشاعر الذي يتعرض لأشياء خارجة عن صناعة الشعر، أو الذي يجبر نفسه على أمر فيه مشقة له، قيل له: متكلِّف، وما أتى به من شعر وُسم بالشعر المتكلِّف. فالتكلف بهذا المعنى اللغوي: إتعاب النفس، وإلزامها ما لا تستطيع، وتكليفها ما لا تطيق، وإدخالها في أمور لا جدوى ترتجى منها.

وقد ورد مصطلح (التكلّف) في كتب القدماء، ولم يحدد مدلوله تحديدا دقيقا، وإنَّما كانت نظراتهم إليه نظرات متفاوتة، فقد خلط (ابن قتيبة) –مثلا– بينه وبين تثقيف الشعر وتنقيحه(أي:صناعته)، عندما قال: ((ومن الشعراء المتكلِّف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوَّم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر، كزهير والحطيئة))[3]. فالتكلف عند ابن قتيبة يعني: التقويم والتثقيف. فإذا أعاد الشاعر النظر في شعره فقد تكلّف شعره. والشاعر المطبوع عنده هو الشاعر المرتجل الذي يقول على البديهة دون إعداد. وهذا على رأي (طه أحمد إبراهيم): ((مجاوزة للواقع والإنصاف. فالشعر صناعة ككل الصناعات تحتاج إلى مرانة وإعداد

1- الهيهاوي، محمد مصطفى، الطبع والصنعة في الشعر، ص71.

2- ابن منظور، لسان العرب، مادة: "ك، ل، ف".

3- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص77، 78.

وقلّما يكون الشعر المرتجل قويّا رائعًا))[1]. وهو رأي يؤكِّده شوقي ضيف أيضا حين جعل كل نموذج فني هو عمل متعدد الصفات قد بذل فيه صاحبه كل ما يستطيعه من جهد، وهو ما اصطلح على تسميته باسم (الصنعة)، وهذه الصنعة حسب رأيه هي أوّل مذهب يقابلنا في الشعر العربي، فهي توجد في جميع نماذجه القديمة.[2]

ويبدو أنَّ شوقي ضيف كان يوافق ابن قتيبة على هذا الخلط، لأنَّه لم يفرِّق بين التكلّف والصنعة، وإنما استخدمهما بدلالة واحدة، يقول: ((كان التكلّف ظاهرة عامة في الشعر القديم، أو بعبارة أخرى كانت الصنعة مذهبًا عامًّا بين الشعراء))[3].

وقد أخذ مصطلح التكلّف مفهوما آخر غير مفهوم الصنعة، حيث انفصل عنها بعد ملازمته لها، وبدأ يترادف مع كلمات مناسبة له مثل: التصنّع الذي يعني التكلّف والغلو والمبالغة. فالتكلف هو التصنع الذي هو غير الصنعة أو الصناعة. ووفقا لما سبق، فالطبع مطلوب والصنعة مقبولة والتصنع أو التكلف مردود وممقوت. وعليه، فإنَّ الحديث هنا سيدور حول مفهوم التكلف، ومعرفة حدوده، والأسباب التي جعلته ممقوتا.

يقول الجرجاني صاحب الوساطة، متحدثا عن الشعراء المحدثين: ((فإن رام أحدهم الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلّف، وأتم تصنّع، ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة))[4]. فقد رادف الجرجاني هنا بين التكلّف والتصنّع. والتصنّع كما جاء في لسان العرب يعني ((تكلّف الصلاح وليس به))[5]. فهو مذموم، ثم نعت الجرجاني التكلّف في قول الشعر. صراحة. بالمقت. مكتفيا بوصف (التكلف) وصفا إجماليا دون تفصيل.

1- ينظر: إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3، 2008م، ص120.

2- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف مصر، ط9، ص22.

3- المصدر السابق، ص24.

4- الجرجاني، عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص19.

5- ابن منظور، لسان العرب، مادة: "ص، ن، ع".

وإذا ما نظرنا في قول أبي هلال العسكري وجدنا أن معنى (التكلف) عنده قد تبلور، فجاءنا بتعريف مفصل له حيث يقول: ((التكلف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرايق طلبه بالسهولة، فالكلام إذا جُمع وطُلب بتعب وجهد، وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلف))[1]. فالصعوبة في قول الشعر عند أبي هلال، وكذلك الالتفاف حول المعنى، يؤديان حتما إلى التكلّف. والشاعر الماهر عنده هو الذي يأتي بالسهل الممتنع دون مراوغة أو دوران. مما يعني أنَّ الصنعة لا تدخل عنده في باب التكلف، لأنها تعدّ من ضمن آليّات الشاعر الماهر الذي يحسن قول الشعر ولا يتكلفه. فالصنعة يلهم بها الشاعر إلهاما كما يلهم بمادة الشعر نفسها، لهذا لا تظهر في الصنعة الموهوبة آثار التعمّل والتكلف.[2] ومن ثم، فضَّل ابن رشيق (456هـ)، البيت المصنوع بمهارة الحاذق على البيت المطبوع، يقول: ((ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا في غاية الجودة، ثم وقع في معناه بيت مصنوع في نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمّل كان المصنوع أفضلهما))[3]. فقد استعمل الكلفة والتعمّل وأراد بهما المعنى نفسه، ورأى أنَّ البيت المصنوع بحرفيَّة الماهر المبدع يعدُّ أفضل من البيت المطبوع. فإذا ظهر في الصنعة كلفة أو تعمّل كان المطبوع أفضل من المصنوع.

أمَّا عبد القاهر الجرجاني (471 هـ)، فإنَّه يضمّن مصطلح (التكلف) دلالة أخرى غير دلالة العجز وادّعاء ما لا يُستطاع، فالتكلف عنده يعني: الإسراف في البديع دون الحاجة إلى ذلك. وقد أشار إلى هذه الدلالة أثناء حديثه عن الجناس والسجع، وكيف أن هناك من الشعراء من يبذل كل ما لديه في سبيل إدخال ألوان البديع إلى شعره فيتكلف ذلك، يقول: ((... وذلك كما تجده لأبي تمام إذ أسلم نفسه للتكلف، ويرى أنه إن مرّ على اسم موضع

1- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، ص55.

2- ينظر: هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، ط1، 1988م، ص600.

3- القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد عبد القاهر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ج1، ص139.

يحتاج إلى ذكره، أو يتصل بقصة يذكرها في شعره، من دون أن يشتق منه تجنيسا، أو يعمل فيه بديعا فقد باء بإثم، وأخلّ بفرضٍ حتمٍ، من نحو قوله:

سيـفُ الإمــامِ الذي سَمَّتْهُ هبَّتُهُ ∴ لَمَّــا تخرَّمَ أهــلَ الكُـفْرِ مُخْتَرِمَا

إنَّ الخليــفةَ لَمَّا صــالَ كُنتَ لهُ ∴ خليفةَ الموتِ فيمن جار أو ظلمَا

قَرَّتْ بِقُـرَّانَ عينُ الدِّينِ واشتترتْ ∴ بالأَشْتَرَيْنِ عيون الشِّركِ فاصطُلِمَا))[1].

فعبد القاهر لا يرى في أشعار أبي تمام المحفوفة بالتجنيس إلا زخارف لفظية مقصودة لذاتها دون أي معنى شعريٍّ آخر، وهذا الشيء يراه تكلفا مزعجا، ومنافيا لصنعة الشعر الحقيقية. وربما استقبح عبد القاهر تكلف البديع عند الشعراء؛ لأن ذلك يصرفهم عن الاهتمام بمعانيهم التي هي محور الشعر وأصله.

أما حازم القرطاجني (684هـ)، فإنَّه يجعل للتكلف أمارات تظهر واضحة جلية في البيت الشعري، وتتحقق إمّا ((بتوعّر الملافظ، أو ضعف تطالب الكلم، أو بزيادة ما لا يحتاج إليه أو نقص ما يحتاج، وإما بتقديم وتأخير، وإما بقلب، وإما بعدل صيغة عن صيغة هي أحق بالموضع منها، وإما بإبدال كلمة مكان كلمة هي أحسن موقعا في الكلام منها))[2]. وهو ما تمت دراسته في علم البلاغة تحت معنى الفصاحة التي تتم بخلو الكلام من تنافر الحروف، وضعف التأليف، والتعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي، وغيرها من شروط الفصاحة[3]. فالشعر المتكلف عند حازم هو ما بني على مثل هذه الأشياء.

ومما سبق، نستنتج أن النقاد عدُّوا التكلّف عيبا يجب على الشاعر أن يتخلص منه. وأنَّ تكلف الشعر عندهم يكون في إقحام اللفظة والحرص على استعمالها من دون أن تحقق أيّ

1- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط1، 1991م، ص15.

2- القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، 1966م، ص223.

3- ينظر: الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن،الإيضاح في علوم البلاغة، تح: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال بيروت لبنان، الطبعة الأخيرة 2000م، ص27، 28، 29.

خدمة للمعنى، وفي إجهاد الفكر في طلب ما لا يلزم، وفي الكثرة المفرطة للبديع، وذكر ما لا يحتاج إليه من الزينة، وفي تنافر الحروف والكلمات، وضعف التأليف، والتعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي، بأن تكون ملامح التعب بادية على هذا الشعر، بثقل أفكاره، وغموض معانيه، وبكثرة ما فيه من الحشو.

ومن خلال ما تقدم، يتضح لنا أن (التكلف) هو الوجه المقابل للطبع، والشاعر الذي يعمد إلى التكلف هو شاعر دون الشعراء. وكما حسّن النقاد الطبع وحثّوا عليه قبّحوا في المقابل التكلف ونفّروا منه، وحرضوا الشعراء على أن يأتوا بأشعار على السليقة دون أن يغتصبوا الألفاظ اغتصابا، وهو ما أكّده القاضي الجرجاني في وساطته، حين قال: ((وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف، ورفض التعمّل، والاسترسال للطبع))[1].

المطلب الثالث: (الصنعة) بين الطبع والتكلف

تعني صنعة الشعر . في المعجم اللغوي . عمله، جاء في الصحاح: ((والصناعة حرفة الصانع وعمله الصنعة))[2]. ومن ثم، ربط النقاد العرب الصنعة والصناعة بالشعر فأطلقوا على مؤلفاتهم أسماء من مثل: صناعة الشعر، وكتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، وغير ذلك، حيث عدُّوا الشعر حرفة كباقي الحرف، يقول عمر بن الخطاب – ضي الله عنه– ((خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته))[3]. ويقول ابن سلام: ((وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان))[4]. فالشعر –إذن– صنعة الشاعر ومهنته.

وصناعة الشعر من القضايا المهمة التي تناولها النقاد العرب القدماء وعنوا بمناقشتها، وهم ((يكادون يجمعون على أن الشاعر وإن كان عبقريا يعود إلى شعره فيقوّمه، ويهذبه، ويغير

1- الجرجاني، عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص25.

2- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة: "ص، ن، ع".

3- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: "ص، ن،ع".

4- الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، ص5.

من قوافيه إذا كانت قلقة نافرة، ومن عباراته حتى تسلس وتنقاد))[1]. وذكروا أن إحكام الصنعة لابد أن يتم وفق شروط معينة، حيث حدد بعضهم ذلك بأربعة أشياء وهي: ((جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاء إلى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها))[2].

ومن ثم، فإنَّ من الشعر كما يرى ابن رشيق ((مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا، وعليه المدار. والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين؛ لكن وقع عليه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف: يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة))[3].

وبناء على هذا القول، نستنتج أنَّ هناك صنعة تدخل في باب الطبع وأخرى تدخل في باب التكلف. والصنعة المطلوبة التي تدخل في باب الطبع؛ هي التي تكون لأجل التنقيح والتثقيف، مثل ما كان يصنع زهير في حولياته، ((فتنقيح الشعر هو تنقيته من كل ما يشينه، وتحليته بكل ما يزينه، وذلك بإعادة النظر فيه مرارا، وتفتيشه بيتا بيتا، حتى يخرج كله متخيرا منتخبا مستويا في الجودة))[4]. ومن ثم، فالشعر ((ليس تدفقا تلقائيا يستسلم فيه الشاعر لقريحته؛ بل هو ضرب من المعاناة والمكابدة والطلب الملح، ولا يكتفي الشاعر بما أتاه لأول وهلة؛ بل يتأمله بعين البصيرة فيسقط منه، ويغير، ويضيف، حتى يخرج قريبا من التمام))[5].

1- بدوي، أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة، 2003م، ص485.

2- الآمدي، الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص402.

3- القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، ص136.

4- البوشيخي، الشاهد، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيُّن للجاحظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982م، ص229.

5- العاكوب، عيسى علي، التفكير النقدي عند العرب، مدخل إلى نظرية الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، 1997م، ص35.

وما كان سبق زهير وابنه كعب والحطيئة، وتفوقهم؛ إلا بسبب تنقيح أشعارهم وتهذيبها وإعادة النظر فيها. ولا ريب أنَّ ما يقصده هؤلاء من وراء هذا العمل هو تجويد القصيدة بحيث يكون الاهتمام بالألفاظ والمعاني جميعا، وليس لمجرد زخرفتها من الخارج فقط.

وقد عدد أبو هلال بعضا من الشعراء الذين يتخذون طريق التهذيب والتنقيح منهجا لهم يقول: ((وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلة، ثم ينظر فيها فيلقي أكثرها، ويقتصر على العيون منها فلهذا قصر أكثر قصائده ...، وكان البحتري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذّبا ...، وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل، وكان يرضى بأول خاطر فنعى عليه عيب كثير))[1].

وإذا كان النقاد اختلفوا في تحديد مفهوم الطبع والتكلف؛ فإنهم في الوقت ذاته اختلفوا في تحديد مفهوم الصنعة، إذ جعل بعضهم الصنعة . وإن دلت على التنقيح والتهذيب . هي التكلف بعينه، ومن ثم، فصلوا الطبع عن الصنعة، وعدُّوا أصحاب الصنعة عبيدا للشعر.

وجعل بعضهم الصنعة المتمثلة في مراجعة النص وتنقيحه وتهذيبه، مرحلة أساسية وضرورية من مراحل العمل الأدبي، وعدُّوها مكملة لطبع الشاعر. يقول ابن طباطبا: ((وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه، فمن تعصَّتْ عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما نظمه، ولحقته العيوب من كل جهة))[2].

في حين تمثلت الصنعة عند بعضهم في الزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية مما هو أقرب إلى التكلف. إذ لا ريب أنّ الشاعر الذي يملأ شعره بالصنعة والزخارف ((يتلمسها طوعا وكرها، لا يبالي أن يكون المعنى غامضا أو تافها، قريبا أو بعيدا، شريفا أو وضيعا، ذا قيمة أو لا قيمة له))[3]؛ هو الشاعر المتكلِف، وشعره هو المتكلَّف المتصنّع.

1- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، ص129.

2- العلوي، ابن طباطبا، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1982م، ص9.

3- بدوي، أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص488.

ومن ثمَّ، فالصنعة تكون أقرب إلى الطبع إذا قصد بها تنقيح الشعر وتجويده وإصلاحه، وتكون أقرب إلى التكلف إذا جاوزت الحد في التزيين والزخرفة وما شابه ذلك. فالمطبوع والمصنوع كلاهما روح شاعرية تملَّكت صاحبها، وكلاهما يمثل موهبة فنيَّة، ولكنهما يختلفان فيما تهيَّأ لهما من تدخّل الجانب التنظيمي لإبراز هذه الموهبة، فإن خلَّى بينها لتنصب بعفويَّة تلقائيَّة في قالبها اللغوي، فهنا يمكن أن يسمَّى صاحبها المطبوع، وإنْ حلَّ الجانب الواعي والفكر اليقظ ليقبل ويرفض واتَّضح طغيان الذهن ليتجاوز المألوف إلى البدعة والإغراب، فهنا يمكن أن يُسمَّى صاحب هذا الذهن بالشاعر الصانع، ويكون شعره مصنوعا[1]. وقد كان في جواب (بشار بن برد) عندما سئل عن سبب تفوقه على أقرانه في إبداع الشعر تحديد لكل من الطبع والصنعة والتكلّف، قال مجيبا: ((لأني لم أقبل كل ما تورده عليَّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفكر جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وانتقيت حرها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت عن متكلَّفها، ولا والله ما ملك قيادي الإعجاب بشيء مما آتي به))[2].

لقد فرق بشار بقوله هذا بين الشعر المطبوع، والشعر المصنوع (المنقح)، والشعر المتكلّف، وكيف أن الشعر المنقح هو أفضل الأنواع. فالشعر المطبوع عنده ما أوردته القريحة وما ناجاه الطبع. والشعر المنقح هو إحكام المعادن واللطائف والسير إليها بفكر جيد وغريزة قوية. والشعر المتكلَّف هو ما يجب الاحتراز منه والابتعاد عنه. وهذا ما أكده بعض النقاد حين قال: ((والكلام الجيد الطبع مقبول في السمع، قريب المثال، بعيد المنال، أنيق الديباجة، رقيق الزجاجة، يدنو من فهم سامعه كدنوه من وهم صانعه. والمصنوع: مثقف الكعوب، معتدل الأنبوب، يطرد ماء البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته كما يجول السحر في الطرف الكحيل، والأثر في السيف الصقيل. وحمل الصانع شعره على الإكراه في التعمل، وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني، يعفي آثار صنعته، ويطفئ أنوار صيغته، ويخرجه إلى فساد التعسُّف،

1- ينظر: عيد، رجاء، التراث النقدي (نصوص ودراسة)، منشأة المعارف الإسكندرية، 1990، ص135.

2- القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 173/2.

وقبح التكلّف ...، وأحسن ما أجري إليه، وأعول عليه، التوسط بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة))[1]، ومن ثم ((فالشعراء ثلاثة، شاعر فطرة، وشاعر صنعة، والثالث الساقط من الحساب شاعر الغفلة، وإذن فالشعر صنوف ثلاثة: شعر الفطرة وهو الأصيل، وشعر الصنعة وهو الدخيل، وشعر الغفلة وهو الطريد الذليل))[2].

خلاصة البحث:

– يعد مصطلح الطبع والتكلّف من أهم المقاييس التي اعتمد عليها النقاد قديما في تقييم القصيدة والشاعر.

– يتضح لنا من خلال البحث أن النقاد خلطوا بين بعض المفاهيم من حيث الدلالة، فحد الطبع عند بعضهم قد يحتوي على شيء من الصنعة، وقد يخلط بعضهم بين الصنعة والتكلف ويراهما شيئا واحدا. وقد أثبتت الدراسة وجود خيط رفيع بين هذه المصطلحات، فإذا قال الشاعر قصيدة بفطرته وسليقته دون مراجعة أو تنقيح فهذا هو الطبع بعينه، فإذا أدخل عليها بعض التعديلات فهي الصنعة، فإذا تمادى الشاعر في تعديلاته وأكثر من محسناته وزخارفه اللفظية فهو التكلف بذاته. فما بين الطبع والصنعة والتكلّف خيط رفيع لا يمكن تجاوزه، فالطبع يأتي أولا، ثم الصنعة، ثم يأتي التكلف المذموم. كما أنَّه لا يوجد تعارض بين الطبع والصنعة، بل هما متفقان ومتناصران يقوي أحدهما الآخر، وأنَّ الصنعة غير التكلف، والفرق بينهما كبير.

– وأخيرا، أشارت الدراسة إلى أنَّ الصنعة المقصود بها التنقيح والتهذيب؛ أمر لابدَّ منه للشاعر. فالشاعر صانع، والصانع من شأنه أنْ يحسِّن من صنعته حتى يكتب لها البقاء، وإلا فإنَّ مصيرها الزوال حتما. وعلى الشاعر ألاَّ يسرف في صنعته، فيحوِّلها من وسيلة يتوصل من خلالها إلى الإبداع، إلى غاية مقصودة في ذاتها، فيصل بذلك إلى التكلف الممقوت الذي حذَّر منه النقاد، وتحاشاه الفحول من الشعراء.

1– القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تح: محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1953م، ص838.

2– الهيهاوي، محمد مصطفى، الطبع والصنعة في الشعر، ص17.

المصادر والمراجع

1- الآمدي، الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1961م.

2- إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3، 2008م.

3- بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة، 2003م.

4- البوشيخي، الشاهد، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيُّن للجاحظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982م.

5- الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط2، "د. ت".

6- الجرجاني، عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1966م.

7- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط1، 1991م.

8- الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، "د. ط، ت".

9- ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى بيروت، ط2، "د. ت".

10- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار.دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط4، 1987م.

11- الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال بيروت لبنان، الطبعة الأخيرة، 2000م.

12- خليف، يوسف، في الشعر العباسي (نحو منهج جديد)، دار غريب القاهرة، "د. ط ت".

13-زغلول سلام، محمد، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى آخر القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط3، "د. ت".

14-الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، ط1، "د. ت".

15- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف مصر، ط9، "د. ت".
16- العاكوب، عيسى علي، التفكير النقدي عند العرب، مدخل إلى نظرية الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، 1997م.
17- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1984م.
18- العلوي، ابن طباطبا، عيار الشعر، تح:عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م.
19- عيد، رجاء، التراث النقدي(نصوص ودراسة)، منشأة المعارف الإسكندرية، 1990م.
20- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف مصر، 1966م.
21- القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، 1966م.
22- القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تح: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1953م.
23- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد عبد القاهر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
24-مطلوب، أحمد، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ط1، 1989م.
25- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تح: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار صادر، بيروت، ط1، "د. ت".
26- هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، ط1، 1988م.
27- الهيهاوي، محمد مصطفى، الطبع والصنعة في الشعر، مكتبة النهضة المصرية، 1358هـ.